ما الغاية من البلاغة ؟

البلاغة فن للقول تعني القول الجيد الذي يَسْبي العقول بقوة أسلوبه ، وسمو إلهامه كما تعني مجموعة الخصائص التي تتوفر في هذا القول المؤثر الجميل . ولذا إذا كانت غايتنا فيما نتغيّاه من البلاغة أن ننشئ أعمالاً أدبية أحسن وأقوم تسترق الأهواء ، وتثير الإعجاب وتَتَدسّسُ تدسُّسًا إلى مناطق الإحساس ، ومكامن التأثير ، وذلك بنفضها لما يعتلج في أعماق الصدور من ألوان المشاعر والأحاسيس ، وترجمتها في صدق ويسر لما تنضح به العواطف والأذواق ، بحيث تجعل من أوتي حسًّا يميِّز به بين طبقات الكلام حين يقع عليها يمسك بها ، ويتغنى بجمالها ، ويقلّب رأيه فيما راعه منها ، وإذا صادفها يمضي يشيع نفسه في سحرها ، ويحلق معها في عالمها بعد أن رفعتْه إليها فأشْهَدتْه ما لم يكن يشْهَد ، وأرته من بارع الصنعة ما لم يكن يرى

لابدّ إن نشدْنا البلاغة العالية أن نزيح من طريقها ما لحق بها من التزيد في المصطلحات والأقسام ، وأن نغربلها ، وننقِّيَها مما دخل عليها وأرهقها وليس منها ولا يمكن له أن يكون ، وبذلك نُصَفِّيها مما شَابَهَا وشَوّهَها ، وأطفأ بريقها فنبقى على الأصيل روحًا وغاية وبذلك تثمر الثمر المأمول منها فترهف الحواس ، وترقق المشاعر ، وتربى الملكات ، وتنمي الأذواق ، وتمكننا من تفسير الأدب وتحليله ، وإدراك ما فيه من خصائصَ وأدوات تكشف عن ذوق الأمة ، وتجاربها ، وخفيات حِسِّها ، ونوازع شعورها وعاطفتها ، وبذلك تتجاوز النظرة السطحية في الشاهد البلاغي ، فتقضي وتفصل فيه بنصف كلمة وكأننا أمام مثال نحوي وصرفي ولسنا في درس بلاغي نفطن إلى ما يضمر من دقة معنى وحُسْن أداء .

بذلك نساعد في أن يعود للبلاغة وجهها المشرق الجميل ، الذي يسطع في كل أفق ، ويتوهج في كل جو ، فيسحر كل طرف ، ويُهزُّ كل وجدان ، فالبلاغة كَفَنّ هي التي تثمر القول الرائع ، والنثر العالي البديع .

إن كثيرا ممن حفِظوا بلاغة التلخيصات ، والتقريرات ، والحواشي ، والشروح ، واستظهروها وأداموا النظر فيها ، وقلّبوا الرأي في محتواها ، وأداروا ألسنتهم في تعابيرها وتراكيبها ، وشغلوا أذهانهم وعقولهم بما جرى فيها من معارك جدلية ، وقضايا منطقية ، لو أنّهم اجتمعوا ليكتبوا صفحة أدبية في مقال سابغ يريقون عواطفهم ، ويعبرون فيها عما يتردّد في صدورهم ، ويجول في خواطرهم ، أغلب الظن أنهم مع ولعهم بتلك البلاغة ما استطاعوا !

وذلك لأن الأدب إنما يبرع المرء فيه ، بالكلف به ، وشدة الإقبال عليه ، والرغبة في ملازمته ، وطول الدربة ، وكثرة الممارسة ، مع الاستعداد الفطري والذوق السليم ، وليس هذا من عملهم ، إنما يعلم هذا من دفع إلى مضايقه على حد ما يقول البحتري في ثعلب وأضرابه .

ومن هنا يجب أن يفرّق بين البليغ الذي يُرسل قلمه في كل الأغراض فلا يستعصى عليه قول ، ولا يتأبى عليه معنى ، وبين العالم بالبلاغة الذي يحفظ قواعدها ويحصّل حواشيها ، ويتقن طريق الجدل العقيم الذي يدور حول المماحكات اللفظية فيها ، ولكن لا قدرة لديه على تبييض مقال ، أو معالجة موضوع في أسلوب طلى مشرق الديباجة ، متوهج الكلمات ، طريف المعنى ، على أننا قد نجد البليغ الذي يجري قلمه في كل ميدان ، ويحلق في كل أفق ويأتي من الكلام بما يخلب اللب ويتغلغل في طوايا القلب ، ويكون عالما بالبلاغة .

وحين يقال : من يوجه المنشئ إلى خلق تلك الأنساق التعبيرية ، والأنماط الراقية ، والنماذج العالية ، مَنْ الذي يعينه ويساعده ويمده بالقاعدة التي تحكم عمله ؟

وهنا أقول : لا يمكن أن يكون الذي يعين ويساعد على إيجاد تلك الأنساق التعبيريّة والأدبية الراقية البلاغة التي يردّدُ أصحابُها مسائلها في رءوسهم على مقتضى القسمة العقلية ، وتَمَثُّل القواعد المنطقيّة ، والإسراف في الجدل ، وتكثير الأقسام والرسوم التي غاب واختفى في ظلها الذوق الأدبي وإنما يعين المنشئ ويساعده أصحاب البلاغة التي كانت تتولد مسائلها ، وشياتها من النظر في كلام أهل الطبع ، وصناع البيان ، إذ كانوا يرددون النظر في صياغاتهم ، ويديمون التأمل في طريقة بناء تراكيبهم ، بما فيها من إشراق في اللفظ ، وجلال في المعنى ، وسمو في الروح ، ولذة في الشعور ؛ وإعجاز في الصنعة ، ثم يتخذون من هذه مقاييس نتيجة للإثارة الفنية التي أثارتها تلك الصياغات المتْقَنَةُ المجوَّدة على النحو الذي نجده عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فهي تصنيفات قد استمدت من التعابير الملهمة بنيانها الذي يتجدّد على الدهر ، ويزهو مع الزمن والذي أبدعه ذووا القرائح الوقّادة ، والفطن اللمّاحة ، والذوق المرهف المصقول ، وجرى ماء العربية صفوا ، وأشرقت فيه ديباجة البيان ، والذي اكتسبه منشئوه من طول الدربة ، وكثرة الممارسة وشدة المعاناة ، واعتصار الذهن ، ومداومة التقليب في حر القول وبديع الكلام .

ذلك أنّ البلاغة على حد ما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ[1] بعد أن استعرض تعريفات العلماء لها : « والناظر المتقصّي في أقوال هؤلاء وأولئك يستطيع أن يستخلص من جملتها أنّ البلاغةَ هي بمعناها الشامل الكامل ملكةٌ يؤثر صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام ، فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلَّمة المفَسَّرة ، والتأثير في القلوب هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطب أو في رأيه ».

ويقول في موطن آخر[2] « وربما حدث للمخاطب فتورٌ في الطبع فلا ينشط

(١) دفاع عن البلاغة ص٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص٢١ .

لحديث ولا يرتاح إلى رأي وهنا يجب على صاحب البلاغة أن يدفع السأم ، ويحرك النشاط ؛ فيُوَشِّي الحقيقة بخياله ، ويحيي الأسلوب بروحه ، ويجذب القارئ بفنه ، وفي هذه الحال يظهر فضل البلاغة على الفلسفة» ويقول[1] «والوصول إلى قرارة النفوس أخصُّ صفات البليغ في كل ما يكتب فلو أن كاتبا وقع على طائفة من الحقائق ، أو حصل على مجموعة من الوثائق ، ثم حققها ونسّقها وأداها في أجمل لفظ ، وأجود صياغة ، ولكنه لم يبلغ بها كنه القلوب كان حريًّا أن يُنْعتَ بما شاء من النُّعوت إلا البلاغة» .

إن مُهِمّة البلاغة أن تكسب صاحبها فصاحة في اللسان ، ونصاعة في البيان وخلابة في الحديث ، وحلاوة في المنطق ، وسطوة في الفن ، وفحولة في العبقرية ، وشدة في الفطنة ، وتوقدًا في الذهن ، وقوة في البلوغ بكلامه إلى قرارة النفوس بحيث تخلق منه مفتنا يعلم مواقع الكلم الطيب فيقع عليه ، ويشدو به بعد أن يكون قد ردّدَ النظر ، وقلب الذهن ، وحكّم القول فيه في طواعية واقتدار ، ثم تهديه إلى ما دَقّ وخَفِي من الأسرار التي تكون من وراء الجمال أو الدمامة في الكلام ، وتساعده بأدواتها الطبعية من معارف مكتسبة مع معارف تنمّيها القراءة ، التي لا تني ولا تتوقف .

البلاغة بهذا كلِّه تساعد البليغ على إرهاف الحس وإثراء الذوق فيتدسَّسُ في أطواء النصوص ، ويتغلغل في أغوارها ، يدرك عمق اللغة فيها ، وكيف تتشعب وتتلون ، وتتركز أو تتوسع كما يدرك ثراءها وخصوبتها ، وسموّ الإلهام الذي فجّر طاقاتها ، وسرائرَ أبنية تراكيبها ، وخصائصها وطرق صياغتها وأحوالها ، وهيآتها ، وتشكيل صورها ، وما بها من نمنمات ، وشيات وبذلك تثمر البلاغة أطيب الثمر ، وتجمع بين جلال الفكر ، وجمال الذوق .

---

(١) دفاع عن البلاغة ص٢٤ .

ومن هنا تكون الدعوة الملحة إلى الحرص على تحقيق تلك البلاغة التي توصلنا إلى هذه الغاية المبتغاة المنشودة ، فنلتف حولها ، ونعمل جاهدين على إحيائها وبعثها ، والعمل والمجاهدة في سبيل نموّها ، ونشرها وتطورها والدعوة الجادة إليها .

* * *

فوائد البلاغة

مما يتصل بالغاية التي نَنْشدها من دراستنا للبلاغة ما تثمره تلك الدراسة من فوائد، تلك التي إن تحققت تحققت معها البلاغة، وإلا فلا بلاغة ولا جمال على رأسها جميعا وفوقها جميعا.

أولاً: إثبات إعجاز القرآن الكريم ولذا يقول أبو هلال العسكري ـ رحمه الله ـ: «إن أحقَّ العلوم بالتعلُّم، وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ـ عِلْمُ البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة ....

وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله من حسن التأليف، وبراعة التركيب ... وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايتهم في حسنِه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه» إلخ[1]

ثانيًا: تعين المنشئ وتأخذ بيده على أن ينشئ أدبا جيدا راقيا، وترسُمُ أمامه الطريق الذي يمضي فيه حتى يكون أداؤه فطنا رفيعا.

ثالثًا: تسهم في تكوين الذوق الأدبي، وتنمية الملكات، وإرهاف الحس وشحذ الطبع، وترقيق المشاعر.

رابعًا: تبصِّرُ الناقد بالصفات التي تُكْسب النص الأدبي رفعة وسموا أو تورثه ضعفا وهزالا؛ فهي تمد الناقد بما من خلاله يهتدي إلى أدوات الأديب ووسائله الفنية؛ ومن ثمّ يهْتدي إلى ما يترقرق في كلامه من صفات الحسن والجودة، أو القبح والدمامة.

---

(١) الصناعتين صـ ٩، ١٠.

وحتى تُحَقِّق البلاغة ذلك لابد من أن يتوفر لها كل ما يأخذ بيدها ، ويساعدها على تحقيق الفوائد المرتجاة منها ، ومن الأسباب التي تنهض بالبلاغة على هذا النحو اقترانها بالمقاييس والأصول المتولدة من كلام أهل الطبع ، وصنّاع الكلام بالتطبيق على النماذج الأدبية الراقية التي تمتلك أقوى عبارة ، وأدق صياغة ، وأحكم نسج والتي توفرت فيها كل أسباب الحسن والجودة والانتفاع في ذلك بفني الجمال والنقد والاتساع لشمول فنون الأدب ومن ثمَّ لا مفَرَّ من الاتصال بالنصوص الفنية التي تتميّز بجمال الحوْك ، وبراعة السبك وقوة التعبير ، وسطوة الكلام ، مما يستريح إليها الذوق بعد تصَفّحها طويلا ، وترجيعها كثيرا ، واختبارها بالرأي والتقليب ، ودراستها دراسة واعية بصيرة للتعرف على خصائصها الفنية التي تحقق لها الجمال وتثير الدهش ذلك أن الجمال الذي يتألق من خلال الكشف والإبانة عما تنطوي عليه النماذج الأدبية الراقية هو هدف النقد الذي يحاول ما وسعته الطاقة أن يصل إليه وأن يحققه [1].

فالنقد إنما يسعى للبحث عن الجمال ، وَيجدّ في التفتيش عنه ، ونشدانه ، وإحصاء المظاهر التي يلُوح من خلالها حتى يحتشد له ، ويحتفل به ، ويهتف له ، ويصل إليه ، ويتغنى بسحره وروعته .

والبلاغة هي ثمرة النقد الناضجة ؛ إذ إنه النبعُ الثرُّ الفياض الذي استقت منه وبنت على وجوده موازينها وأصولها فالنقد الذي يتصفّح الكلام ، ويُصَفيه ويُمَيِّز جيده من رديئه ، ويحكم له بالحسن أو بالقبح يكون أداةً قوية تجعل صانع الكلام يدرك تمام الإدراك ، ويعلم كل العلم أن وراءه من يحاسبه ويزن عمله ، ويقضي ويفصل في كل دقيقة من دقائقه . ومن هنا فإنه يجتهد ما وسعه الاجتهاد في أن يجعل من أدبه سفيرا بينه وبين قرائه وجمهوره يفيض بما تجيش به عاطفته ،

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور محمد علي سلطاني في كتابه مع البلاغة في تاريخها في هذا الموضوع .

ويصدق في الترجمة عما يعتلج في قرارة فؤاده ، ويصور دخائله أكمل تصوير ، ويعبّر عنها أدقّ تعبير ، ويشحذ كل قواه ليبلغ غاية الإحسان في عمله ، حتى لا يكون غرضا لسهام الناقدين الذين يترصّدون إنتاجه ، ويستعرضون أعماله ، ثم يضعونه في مكانه الصحيح بلا زيف ، ولا تزوير إما مع المبرِّزين المجوِّدين ، وإما مع الضعاف المهازيل .

ولذا كان ارتصاد النّقدة للعمل الأدبي من وراء تجويد المنشئين الذين يحرصون على أن ينالوا الاستحسان ، ويظفروا بحسن المكانة ، وجلالة التقدير ومن ثَمَّ فإننا حين نردّد ونقول : إن البلاغة ثمرة النقد الناضجة فإنما نعني أنها قامت من بين ما قامت على ما أذاعه النقاد ، وجهروا به في هذا الحقل المثمر من خلال كشفهم عن المزايا والعيوب ، حين يحكمون على العمل الأدبي بما فيه من نسج متداخل محكم ، ومن لفظ مضيء مشرق ، ومن معنى شريف كريم ، أو ما يتردد في أديمه من معنى ضحْل ، ولفظ مستكره ، ونسج ردىء مهلهل ، وعاطفة خامدة منطفئة ؛ إذ إنه على هذا الأساس القائم على الاستحسان والاستقباح قامت البلاغة فيما قامت به .

ذلك أنّ بيئة النقاد كانت واحدة ، من الحقول الخصبة التي نمت في تربتها بذور البحث البلاغي ، وليس معنى هذا أن البلاغة أدنى منزلة من النقد وأننا في غير حاجة إليها استغناء بالنقد عنها ؛ لأننا كما ألمحنا أنها وسيلتنا في الكشف عن ذوق الأمة وخبراتها في ميادين الأدب واتجاهاته المختلفة ، كما أنها وسيلتنا إلى إدراك ما في الأدب من قيم ، وما يتردّد فيه من حقائق ، كما أنها وسيلتنا إلى إرضاء حاجات الناس العاطفية والروحية والوجدانية ، وفوق هذا كله فهي الطريق الوحيد لتبْصيرنا بالصالح فنَقْتَفيه ونتأثر به ، وتحذيرنا من الفاسد فننبذه ونتجنبه »[1] .

---

(١) قضايا النقد الأدبي في القديم والحديث صـ ٣٥٦ الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن بينها وبين النقد تعاونًا وتكاملا ؛ إذ إنه لا يمكن أن يقوم أحدهما بدون الآخر ، فكل مصطلح بلاغي إنما هو ثمرة ناضجة لقيم جمالية ، والجمال هو هدف النقد الذي إليه يهدف وعليه يحرص وعنه يفتش وحين نسلم بهذا ، ويستقر في وعينا علينا أنّ ندرك أن العلاقة بين النقد والبلاغة إنما تقوم وتنهض على أساس أن البلاغة بأصولها ومقاييسها المتولدة من كلام أهل الطبع وصنّاع الكلام تكون الموَجِّه الذي يرشد المنشئ إلى إنتاج أعمال أبلغ ، وأملأ ، وأحسن ، وأقوم ، فهي تعلمه طرق الأداء الأفضل وإذا كانت البلاغة تبدأ مع المنشئ من قبل أن يبتكر فنه الأدبي فتعلمه مزايا الوجوه البلاغية التي ترتبط بأحوال المخاطبين حتى يعبر عما يرضي أذواقهم ، ويُشْبع حاجة في نفوسهم بأسلوب طلِيٍّ يشيع البهجة في النفس ، والاطمئنان في القلب ، فإنّ النقد يبدأ عمله في مرحلة متأخرة بعد أن يكون الأديب قد فرغ من عمله وإنشائه ، إذ إن النقد ظِلُّ الأدب فيتناوله ، ويطيل التصفح له ، والنظر فيه ثم يحاسبه ويحكم له أو عليه معلِّلاً لهذا الحكم وشارحًا لحيثياته وأسبابه وهذا الحكم إنما يأتي بعد وصف النص وتحليله ، ومناقشته ، والموازنة بينه وبين غيره ، مع عدم إغفال أن البلاغة إنما تمد الناقد بما يستطيع من خلاله أن يحكم على الأسلوب مع أن البلاغة في جذورها البعيدة كان من بين ما أسهم في نشأتها ملاحظات نقدية .

فالبلاغة نقد ، ولكنه نقد جزئي ، يهتم بالوجه البلاغي ضمن حدوده دون أن يغفل الحكم عليه من خلال الموقف الشعوري الذي انبثق منه وقيل فيه وتحت أجوائه[1] » .

وعلى هذا يتأكد لدينا أن النقد والبلاغة ميدانهما النص الأدبي وإن كانا يفترقان من حيث إنّ البلاغة تأخذ بيد المنشئ وتساعده بقواعدها وأصولها

---

(١) انظر البلاغة العربية في تاريخها صـ٢٠٤ دكتور محمد علي سلطاني .

المسبقة على إنشاء أدب راقٍ جيد ، على حين أن النقد إنما يتناول النص بعد إنشائه بالدراسة والتحليل والتصفية ثم يحكم له أو عليه من غير قواعد مسبقة ؛ لأنه إنما يحاسب المبدعين على ما يقدمون من إبداع وإنتاج ، فهو يبدأ عمله بعد فراغ الأديب من عمله الفني على خلاف البلاغة ، كما أن البلاغة التي تولّدت مقاييسها وأصولها من كلام أهل الطبع تضع قواعدها بمعزل عن النص المعيب المنقود لأنها كما قلنا ثمرة فيض من النصوص الثرية جسّدت قيمًا فنيّة وجمالية أثبتت خلودَها عَبْر الأيام ثم تجَمَّعتْ في النهاية في صورة مصطلح بلاغي يُعَلِّم المتعلمين ، ويربي أذواقهم ، وينمّي ملكاتهم ، في حين أن النقد يزن العمل الذي بين يديه ، ويتخذ منه ميدانا للتحليل ، وإصداره الأحكام ، كما أن البلاغة تتصف بالنظر الجزئي ، فهي تتوقف أمام الكلمة ، والتركيب وتبين أن الكلام كي تجود صنعته ، ويتقن بناؤه ، وتشرق بالجمال صفحته فإن عليه أن يبرأ من الآفات والعيوب التي تصيب كلماته وتراكيبه كي يصح ويسلم ، ولذا فإن اهتمامها يتوجه أولا إلى اللفظة والتركيب والوجه البلاغي من خلال صلته بموضوع النص .

أما النقد فإنه يقوِّم العمل من ناحيته الفنية ، وبيان قيمته التعبيرية والشعورية ، وصلته بقائله ، وارتباطه بالبيئة ، وبيان مكانه في خط سير الأدب فوظيفة النقد تتلخص « في تقويم العمَل الأدبي من الناحية الفنية ، وبيان قيمته الموضوعية ، وقيمته التعبيرية والشعورية ، وتعيين مكانه في خط سير الأدب وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته ، وفي العالم الأدبي كله ، وقياس مدى تأثره بالمحيط ، وتأثيره فيه ، وتصوير سمات صاحبه ، وخصائصه الشعورية والتعبيرية ، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك »[1]

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص٥ للشهيد سيد قطب ـ طبعة دار الشروق .

على أنّ مما يعين البلاغة ، ويساعدها على النهوض وأداء دورها بعد ارتباطها بالنقد وعلم الجمال عَوْدَتُها إلى ما كانت عليه عند الإمام عبد القاهر ، وإلى منهجه في تحليل النصوص قبل أن يغيّر السكاكي ومن جاء بعده وجهتها من مادة أدب ونقد ، واحتفال بالنصوص ، واحتشاد لها وبيان خصائصها الفنية وتوضيح ما فيها من قيم تعبيرية ، وشعورية ، وصوتية ، ومعايشتها معايشة كاملة باحثةً عن أسرار التراكيب ، وما فيها من إشارات ، وإيماءات لتربية الملكات ، وتنمية المدارك ، حتى تستطيع أن تتغلغل في أعماق القلوب ، وخفايَا الصدور ، وتبلغ ما تريد تبْليغَه إلى وجدان المخاطب ، وإثارة شعوره ، وتحريك عقله .

أقول قبل أن يغير السكاكي هذا كله هو ومن جاء بعده طريقها إلى مادة للجدل وإثارة للاعتراضات ، وردود على تلك الإثارات ، ثم ردود على تلك الردود ، مع الاستهداء بعلم المنطق في قواعد جامدة لا يمكن معها أن تعين على الأداء الجيد والإغناء والتأثير على أنه مما يساعد على النهوض بالبلاغة حتى تؤدي وظيفتها تنقيتها ، وتصفيتها مما فيها من تعقيد شديد في عباراتها ، ومبالغة مرذولة في إبهامها وغموضها ، وتحريرها من الأغلال التي تخنقها ، وتمتص نُضارة حياتها ، وتقتّات من حيويَّتها على نحو ما هو شائع في بلاغة التلخيصات ، والشروح ، والحواشي من الضغط الشديد ، والتركيز الأشد ، والجدل اللفظي ، والاهتداء برسوم المنطق وحدوده ، والاعتساف في بحوث فلسفية لا أثر لها في فصاحة اللسان ، ولا نصاحة البيان .

إنّ الدراسة التحليلية للنصوص المنتقاة والمختارة من شعر ونثر والإكثار من الأمثلة والنماذج ، والموازنة بينها على نحو يبرز خصائصَها ، وأحوالها ، ويكشف عن مَعْدِنها ، مما يساعد البلاغة على أن تنهض وتقوم بأداء وظيفتها في تحقيق الغاية المرتجاة والمأمولة منها .

* * *